المحرومون
في الاتحاد السوفياتي

بقلم: سيرغي قره مورزا

Kassioun.org

المحرومون
في الاتحاد السوفياتي

بقلم: سيرغي قره مورزا

Kassioun.org

■ بقلم: سيرغي قره مورزا
ترجمة: قاسيون

إن تحليلنا للمشروع السوفييتي ومساره المستقبلي موضوع يهم الجميع، فالعالم أصبح في وضع يضطرنا إما البقاء معاً أو الموت معاً، لذا من الواجب علينا أن نجد لغة خاصة بنا نستطيع بفضلها الحوار مع أفكار الغرب، وهو ما لم يكن موجوداً سابقاً. فحتى الشيوعيون الغربيون كانوا يتحدثون مع الحزب الشيوعي السوفييتي بلغة سوسلوف، وكانوا على ضلال كبير في كل الأمور المتعلقة بالاتحاد السوفييتي، فكانوا يمدحون ما كان ينبغي ألا يمدح، وغفلوا عن تلك القيم التي أوجدناها فعلاً..

إن العالم يقف اليوم أمام خيارين اثنين: إما ظهور لأنماط مختلفة للشيوعية، وإما فاشية توتاليتارية لا

تحتمل التنوع. وهما شكلا المجتمع مابعد الصناعي، ولن يحتمل عالمنا سواهما. وإذا تأملنا في المشروع الأول الذي يرفض فكرة «المليار الذهبي»، وجب علينا أن ندرك أسباب انهيار النظام السوفييتي.

إننا نملك الآن خبرة الانهيار، لذلك فمن أجل مناقشة انهيار النظام السوفييتي لابد من ضبط بعض المفاهيم. ويمكننا القيام بذلك على أفضل وجه إذا اتبعنا أفكار غرامشي.

مأساة غرامشي..

يعد أنطونيو غرامشي مؤسس الحزب الشيوعي الإيطالي وباني فكره النظري، وكان نائباً في البرلمان الإيطالي، اعتقله الفاشيون عام 1926 وأودع في السجن. في عام 1934 أطلق سراحه إثر عفو عام، ولكن المرض كان قد تملكه فتوفى عام 1937. عام 1929 سُمح لغرامشي بالكتابة في سجنه، حيث باشر بالعمل في مؤلفه الضخم «دفاتر السجن» الذي نشر لأول مرة في إيطاليا خلال الأعوام 1948–1951.

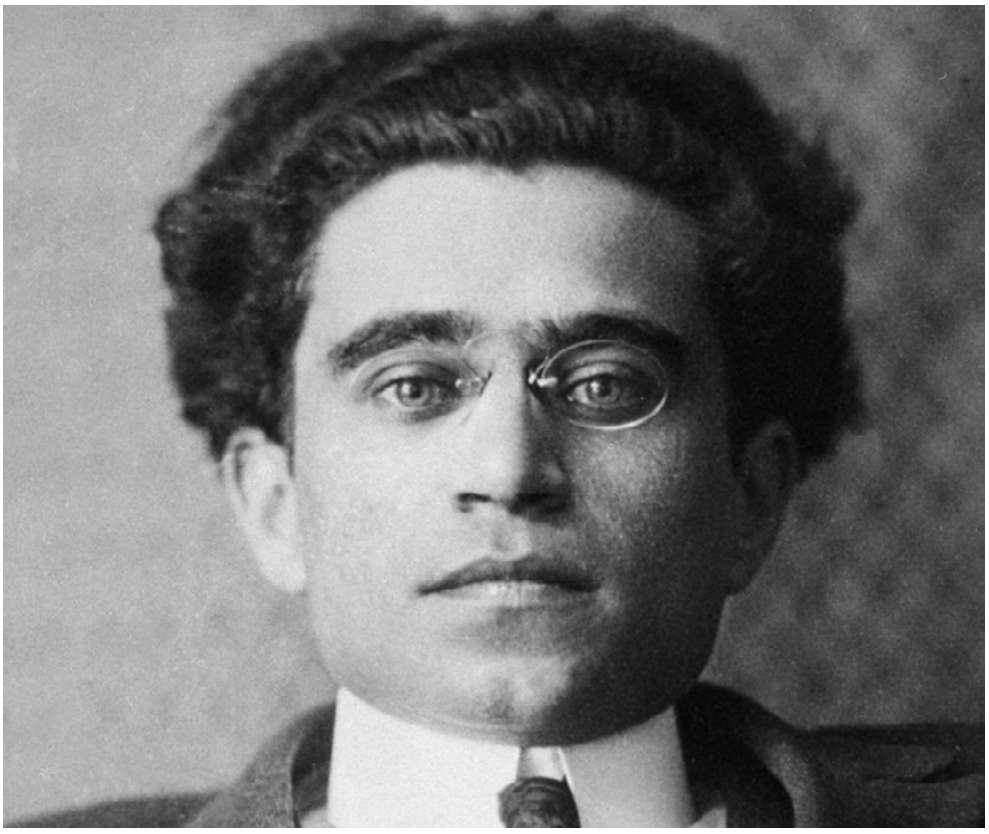

أنطونيو غرامشي، مؤسس الحزب الشيوعي الإيطالي

وفي عام 1975 صدر هذا المؤلف على شكل طبعة علمية نقدية مؤلفة من أربعة مجلدات مزودة

بالشروحات. ومنذ تلك الفترة توالت الإصدارات المتعاقبة بشتى اللغات، عدا الروسية، أما عما صدر من مؤلفات تبحث في ذلك العمل فيقدر عددها بالآلاف. وبالنسبة للإصدارات باللغة الروسية فقد نشر حوالي ربع مؤلف «دفاتر السجن»، ومنذ بداية السبعينات، حيث كانت التحضيرات السرية للبيروسترويكا في أوجها، حظر المتنفذون في الحزب الشيوعي السوفييتي اسم غرامشي «بالرغم من أن هناك دلائل كثيرة تشير إلى أن إيديولوجيي البيروسترويكا أنفسهم كانوا يدرسون أعمال غرامشي بإصرار»..

إن سبب الحظر على أعمال غرامشي كان حسب زعمهم اختلافه الشديد مع لينين، والحقيقة أن السبب كان يكمن في أن تعاليم غرامشي اتخذت كأساس في الحملة الضخمة للتحكم بوعي مواطني الاتحاد السوفييتي بهدف القيام ب«ثورة» من فوق «في المستويات العليا للسلطة».

لم يكتب غرامشي «مذكرات السجن» من أجل النشر، حيث كان خاضعاً لرقابة شديدة، مما جعل قراءتها أمراً ليس هيناً، ولكن بفضل جهود عدد كبير من المختصين الباحثين في أعمال غرامشي، تم توضيح معاني معظم المواد التي تركها. وبشكل عام يدور الحديث حول مساهمة غرامشي الهامة في إغناء الكثير من المعارف الإنسانية: الفلسفية والسياسية والأنتربولوجية والثقافية والتربوية.

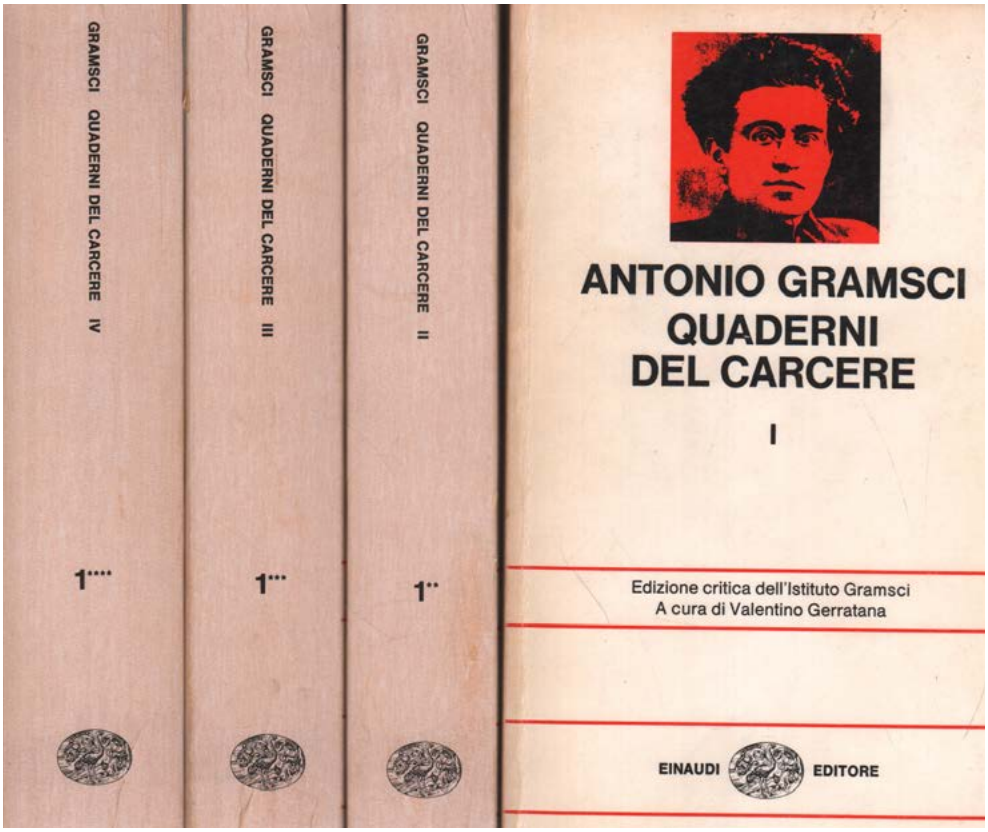

«مذكرات السجن»، أنطونيو غرامشي، أربعة مجلدات

وقد قام غرامشي بمساهمته هذه بعد إدراكه تجربة الإصلاح البروتستانتي والثورتين الفرنسية الروسية 1917 وفهم التجربة الفاشية. وهو بهذه الطريقة يكون قد أنشأ نظرية جديدة للدولة والثورة في المجتمع الحديث، لكن تبين فيما بعد أن غرامشي أثناء عمله من أجل انتصار الشيوعية، وضع العديد من الاكتشافات ذات الأهمية العلمية العامة.

سوف نصاب بالذهول، عندما ندرك أي مدى واسع للظواهر الاجتماعية يتم دراستها اليوم بواسطة نظرية غرامشي، فهي تتسع لأمور مثل مسار أشكال النزاعات القومية، التكتيك الذي تتبعه رئاسة الكنيسة في صراعها مع لاهوت التحرير في نيكاراغوا، تاريخ الرياضة في الولايات المتحدة الأمريكية وتأثيره على الوعي الجماهيري فيها، خصائص الأدب المعاصر في إفريقيا وفعالية تلك أو غيرها من أنماط الإعلان، فإذا كان علم الاجتماع الغربي البراغماتي قبل 20 30 سنة يعتبر أنه من الضروري استخدام المنهج الماركسي الكلاسيكي أيضاً مع غيره لتحليل كل العمليات الاجتماعية الهامة، فإنه اليوم يرى أنه لابد من تحليل المشكلة باستخدام مفاهيم ومنهج غرامشي.

يمكن التحدث الآن عن مأساة غرامشي.. فكل ما أورده من أفكار وإنذارات وجهها لرفاقه ليتعلموا كيفية تعبئة الوعي السليم للجماهير، وكيفية الارتقاء بوعي الكادحين، درسها واستخدمها الأعداء لأغراض معاكسة تماماً لقمع الوعي السليم وإذلال الإنسان والتحكم الفعال بوعيه لتعزيز هيمنة الأقلية المسيطرة، وذروة «تطبيق مبادئ غرامشي» كانت عبر «البيروسترويكا» في الاتحاد السوفييتي.

ملصق دعائي حول البيروسترويكا

فأي تناقض هذا؟! فبينما كان الفيلسوف الشيوعي الفذ غرامشي يستنفذ آخر قواه في سجنه لإبداع نظرية رائعة تفسر المجتمع المدني ووضعها بين يدي رفاقه، كان فلاسفة الغرب وإيديولوجيو البرجوازية البارزون يجمعون كل دفاتر ومذكرات غرامشي ورقة ورقة. ففي كل عام يقدم في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها أكثر من عشر أطروحات مكرسة لغرامشي، وتعقد المؤتمرات العلمية بشكل منتظم حول هذا الموضوع. كل هذا والشيوعيون السوفييت يرفضون حتى سماع هذه النظرية!.. إنه لشيء مؤسف حقاً.

إن أحد أهم أجزاء مؤلف غرامشي هو مذهبه في الهيمنة، حيث يعد جزءاً من النظرية العامة للثورة بوصفها ثورة تعمل على انهيار الدولة والانتقال إلى نظام اجتماعي سياسي جديد.

مذهب أنطونيو غرامشي في الهيمنة

يرى غرامشي أن سلطة الطبقة المسيطرة لا تقوم فقط على القوة والعنف، بل تقوم أيضاً على التوافق، فالحيازة على الملكية بوصفها الأساس الاقتصادي للسلطة لا تكفي بمفردها، فهي لا تضمن آلياً قيام سيطرة المالكين، وبالتالي لا توفر لهم إقامة حكم مستقر.

يؤكد غرامشي أن الهيمنة بكونها مقولة أخلاقية سياسية، لا يمكن ألا تكون اقتصادية. وعلى الرغم من ذلك لا يتوقف عند الحتمية الاقتصادية للمادية التاريخية التي تركز على علاقات الملكية. فالاقتصاد هو الهيكل العظمي للمجتمع، والإيديولوجيا هي الطبقة الجلدية التي تكسوه: «لا يمكننا القول إن الجلد بالنسبة لجسم الإنسان ما هو إلا ضرب من الوهم والخيال، في حين أن الهيكل العظمي هو الشيء الواقعي الوحيد بالنسبة للجسم»، فليس بسبب هيكلها العظمي نُعشق المرأة، بالرغم من وضوح مدى تأثير الهيكل العظمي على إضفاء الرشاقة والكياسة على حركتها.

وهكذا تكون الدولة، وبغض النظر عن أي طبقة مهيمنة فيها، تقوم على دعامتين اثنتين: القوة والتوافق. ويطلق غرامشي اسم الهيمنة على الحالة التي يتم عندها بلوغ درجة كافية من التوافق، فالهيمنة عنده ليست بالحالة الجامدة التي تم التوصل إليها، بل هي عملية دقيقة وديناميكية ومستمرة. فالدولة هي عبارة عن هيمنة مكسوة بدرع خارجي من الإكراه، والإكراه ليس سوى درع خارجي، ولكنه يتضمن في جوهره محتوى يفوقه أهمية. والهيمنة لاتفترض وجود توافق عادي وحسب، بل توافق فعال يكوّن لدى المواطنين رغبات متوافقة مع ما تريده الطبقة المسيطرة في المجتمع:

«الدولة هي جملة النشاطات العملية والنظرية التي بواسطتها تتمكن الطبقة المهيمنة من تبرير هيمنتها والمحافظة عليها، محققة في ذلك توافقاً فعالاً لدى المحكومين». من الواضح أن هذا التحديد هو تعقيد كبير لصيغة لينين التي تقول: «الدولة هي آلة لقمع إحدى طبقات المجتمع من قبل طبقة أخرى»، أو حتى يمكن اعتبار هذا التحديد تجاوزاً لتلك الصيغة.

إذا كانت الهيمنة هي قوة الدولة الأساسية وقاعدة سلطة أية طبقة مهيمنة، فإن مسألة استقرار النظام السياسي من ناحية وشروط انهياره من جهة أخرى، ترجع إلى مسألة الكيفية التي يتم وفقها تحقيق تلك الهيمنة أو تقويضها.

حسب غرامشي، إن تحقيق الهيمنة أو نسفها، هو عملية خلوية لاتجري على شكل صدام قوى طبقية، وإنما تجري وفق تغيرات بطيئة ومتدرجة وغير منظورة في الآراء والأمزجة ضمن وعي كل إنسان. فالهيمنة تعتمد على النواة الثقافية للمجتمع التي تتضمن جملة من التصورات عن العالم والإشارات والكثير من الرموز والصور والتقليد والأوامر المسبقة والمعارف والخبرات المتوارثة منذ قرون. ما دامت هذه النواة مستقرة، فإن المجتمع يبقى مالكاً «إرادة جماعية ثابتة» باتجاه المحافظة على النظام القائم.

أما نسف هذه النواة الثقافية وتقويض تلك الإرادة الجماعية فما هو إلا شرط للثورة.

برز في النظام السوفييتي ما سماه غرامشي «الهيمنة التحررية» أو هيمنة المنطق السليم، ولكن لم يكتب لها الاستمرار.

نحن نذكر أي مجهود ضخم بذلته ماكينة الحزب الشيوعي السوفييتي الإيديولوجية خلال البيروسترويكا قبل تمكنها بشكل نهائي من نسف النواة الثقافية للمجتمع السوفييتي في وعي الإنسان السوفييتي العادي، لتحل مكانها هيمنة «أصحاب الخصخصة». كل هذه «الثورة من فوق» «أو حسب مصطلح غرامشي «الثورة السلبية»» كانت وفقاً لمذهب الهيمنة والعدوان الخلوي على النواة الثقافية. فمستشار يلتسين «راكيتون» يصرح في المجلة الأكاديمية: «إن تحويل السوق الروسية إلى سوق رأسمالية حديثة كان يتطلب إيجاد حضارة جديدة وتنظيم اجتماعي جديد، وبالتالي تغييرات راديكالية في نواة ثقافتنا».

التأثير على الوعي الاعتيادي

على أي محتوى من محتويات النواة الثقافية ينبغي أن نؤثر من أجل إقامة الهيمنة أو نسفها؟ يجيبنا غرامشي: ليس على نظرية الخصم، بل التأثير على الوعي الاعتيادي، أي على الأفكار اليومية للإنسان العادي. إن ذلك الجزء من الوعي الاعتيادي مفتوح لإدراك أفكار العدالة، فما يهم البرجوازية في سعيها لفرض هيمنتها أو للمحافظة عليها، هو تحييد هذا الوعي السليم أو قمعه عبر إقحام خرافات خيالية فيه.

أثناء الثورة الفرنسية، كانت الهيمنة الفعالة جداً والماضية قدماً باتجاه سلطة البرجوازية متحققة، فسرعان ما تشكل حلف وثيق بين رأس المال والإنتليجنسيا، ارتبط مع حركة الإصلاح الديني الألمانية، التي ولدت تيارات فلسفية قوية. وبشكل عام يعتبر غرامشي أن اتحاد حركة الإصلاح البروتستانتي بالنموذج السياسي للثورة الفرنسية هو الحد الأقصى النظري لمدى فعالية إرساء الهيمنة.

لقد كان غرامشي أحد الذين وضعوا أسس علم اجتماع جديد مطوراً المادية التاريخية، وهو أحد الفلاسفة الأوائل الذين أدركوا الخارطة العلمية الجديدة للعالم ونقلوا روحها الرئيسية إلى علم عن المجتمع.

ولعل أكبر إثبات على صحة نظرية غرامشي هو استراتيجية حزب المؤتمر الوطني الهندي الناجحة في استخدام اللاعنف لتحرير الهند من التبعية الاستعمارية، فعبر الكثير من «الأعمال والأقوال الصغيرة» استطاع الحزب التوصل لهيمنة ثقافية متينة في صفوف الجماهير..

يمكن أيضاً أن نورد عملية أخرى مخططة بذكاء وهي انتقال إسبانيا السلمي بعد موت فرانكو من مجتمع توليتاري مغلق إلى اقتصاد السوق الليبرالي، ومن نظام فيدرالي إلى نمط غربي من الديمقراطية. ثم حلت أزمة هيمنة النخبة الموالية لفرانكو عبر سلسلة من المواثيق التي عقدت مع المعارضة اليسارية الطامحة للهيمنة. بنتيجة هذه المواثيق وحلول الوسط تم قبول اليساريين ضمن النخبة، أما الفرانكويون

فقد غيروا لونهم وعباراتهم المقيتة وأصبحوا «ديمقراطيين». وتمكن اليساريون من «إقناع» الجماهير بالصبر والتخلي عن مطالبهم الاجتماعية، الشيء الذي لم يكن بمقدور اليمين تحقيقه.

تنميط المجتمع.. وتجزئته

إن الشرط الأهم للهيمنة في المجتمع المدني حسب غرامشي هو تنميط المجتمع وتجزئته إلى قطاعات عبر عملية «تذرية» على الصعيد الاجتماعي وتعميق اغتراب الأفراد أحدهما عن الآخر، ولكن بالوقت نفسه، هناك ضرورة لربط قطاعات المجتمع بعلاقات لاتقود إلى التماسك العضوي في المجتمع، ولاتشكل خطراً على نظرية الهيمنة.

وقد بينت الدراسات وفق منهج غرامشي في الهيمنة، بأن الرياضة في الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت الوسيلة الفعالة من أجل الهيمنة «الخلوية» على المجتمع الأمريكي. فقد خلقت الرياضة رموزاً ونماذج لا تقود إلى وحدة اجتماعية متماسكة، لكنها ربطت بين أكثر قطاعات المجتمع تبايناً، من الشرائح الدنيا للزنوج وحتى النخبة البرجوازية. وقد عملت الأنتلجنسيا الليبرالية ضمن منطق نظرية غرامشي حول الهيمنة في نسف هيمنة القوى الاشتراكية في دول أوربا الشرقية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية جرى نشر أطروحات مثيرة استحوذت على وعي القراء العاديين حول دور المسرح في انهيار النواة الثقافية لدول أوروبا الشرقية.

لقد تمت دراسة أعمال مسرح هاينر ميولر الذائع الصيت في ألمانيا الديمقراطية السابقة بهدف «نسف التاريخ من القاعدة»، حيث تبين أن هذا المسرح هو مثال نموذجي عن الظاهرة التي سميت ب«المسرح المعادي للمؤسسات»، أي المسرح الذي يعمل على تقويض المؤسسات الاجتماعية، وبحسب الاستنتاجات التي تم التوصل إليها من تلك الدراسات الأمريكية كان المخرجون يتعمدون البحث عن الصدوع في «صخرة الهيمنة»، وبذلوا كل جهد لتوسيع التشقق على المستوى البعيد وصولاً إلى نهاية التاريخ والذي يعني بالنسبة لهم الوصول إلى انهيار ذلك النظام السوفييتي. ولقد سبق لنا أن شاهدنا هذا النوع من المسارح والمخرجين في موسكو أيضاً. وخلاصة الموضوع أن انهيار النظام السوفييتي في أحد وجوهه، كان فقداناً للهيمنة الثقافية على جزء واسع من فئات الشعب، وبذلك فقدت السلطة السوفييتية التوافق الفعال لمواطنيها في استمرار سلطتها، ولم يكن بالإمكان إنقاذ الموقف بواسطة استخدام القوة لأن الضباط «أنتلجنسيا الجيش» كانوا أول من تحرر من الهيمنة الثقافية للمشروع السوفيتي.

النظام السوفييتي ومشكلة الجوع الروحي

لماذا انهارت شيوعية بريجنيف؟ فلم يكن هناك أي اضطهاد أو جوع أو ظلم مجحف، بل على العكس من ذلك كانت الحياة تتحسن باطراد، فالناس كانوا يحصلون على شقق جديدة، ويسافرون للجنوب للاستجمام، ويفكرون باقتناء السيارة ومنهم من كان يملكها فعلاً، لماذا إذاً صدق الناس غورباتشوف بحماسة وشرعوا بهدم بنيتهم؟ لماذا يقوم مهندس شاب بترك مكتب التصميم الذي يعمل فيه ليبيع السجائر عند مدخل المترو كمتشرد جاهل؟.

لماذا تخلى الناس عن ضمان الحصول على السكن المجاني؟ إنها ظاهرة فريدة لا مثيل لها في التاريخ، لذا يجب علينا فهمها. فمنذ بداية إقبالنا على معالجة المشكلة تبين أن عملية التحليل ستكون معقدة وتحتاج لما هو أكثر عمقاً من الفهم المبسط للمادية التاريخية ومفاهيمها من نمط «المقدمات الموضوعية» و «المصالح الاجتماعية»، ومنذ عشر سنوات ونحن نشهد كيف تعمل تلك الحشود باتجاه معاكس لمصلحتها، حتى أن كثيراً ما يمضي بعضهم إلى الموت قدماً متذرعاً بأسباب هي أقرب إلى اللامعقول.

لقد قادت النزاعات الظاهرة والمخفية إلى انهيار حضارة كاملة في روسيا الاتحاد السوفييتي كانت تتصف بالتنظيم الذاتي الشديد. إن المادية التاريخية بمستوى تطورها السابق، لم تملك اللغة الكافية لشرح هذه المنظومات، ولكن يجب البدء بذلك.

من الواجب أن نتعمق في نطاق الأمور غير الاعتيادية، ولنبدأ بالأسباب الجلية، فالعيوب الرئيسية في

أي مشروع اجتماعي تكمن في عدم تلبيته لحاجات أساسية لفئات واسعة من المجتمع.

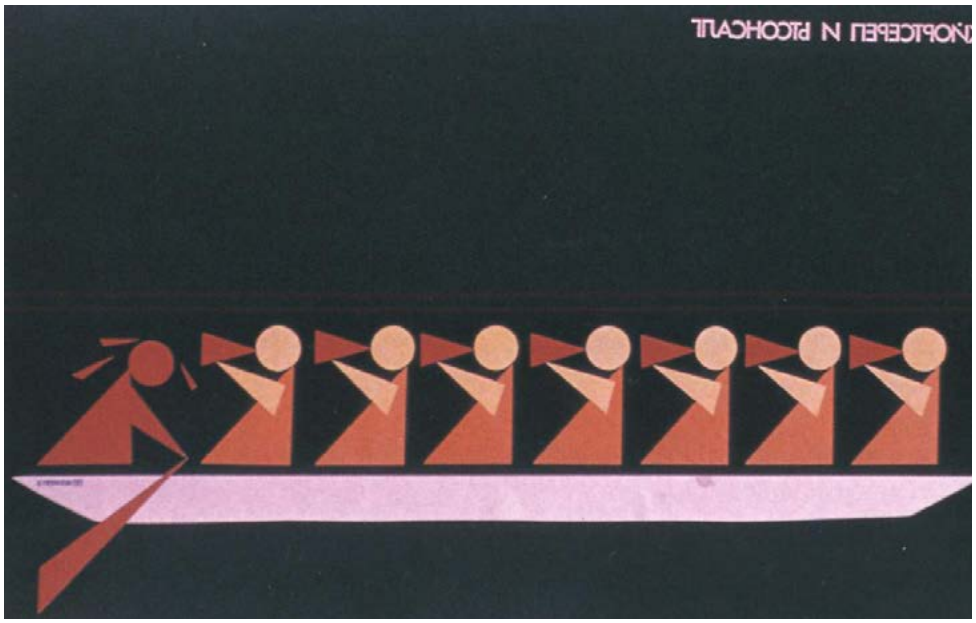

ملصق دعائي سوفييتي خلال فترة البيروسترويكا

إذا كان عدد المحرومين كبيراً ويتمتعون بقوة، عندها سيطرأ تعديل على المشروع بتأثير الضغط الممارس من قبلهم، وإلا فالمشروع سيصل إلى نقطة حرجة، وسيكون مصيره الفشل.

لنبحث الآن من كان محروماً في الاتحاد السوفييتي، ولن نتسرع بتقييم «الحاجات» قبل تصنيفها أكانت حاجات منطقية أو هوائية أو شائنة. لنتذكر الآن الفكرة العادية القائلة إن الإنسان يعيش في عالمين: عالم الطبيعة وعالم الثقافة، عالم الأشياء، وعالم «الإشارات أو العلامات». فالأشياء التي أوجدتها الطبيعة أو التي أوجدها الإنسان نفسه هي الأساس المادي لعالمنا، أما عالم الإشارات الذي يتميز بكونه أكثر تنوعاً، فإنه يرتبط بالأشياء عبر علاقات معقدة، وأحياناً كثيرة غير محسوسة وغير مدركة.

لقد نشأ المشروع السوفييتي قبل كل شيء من وضع التأمل في حالة روسيا الفلاحية، ومن هنا انبثقت التصورات المختلفة حول الضروري للإنسان والمرغوب به، وغير الضروري، وخلال الثورة كان المشروع السوفييتي صارماً ومحدداً، فتمت تصفية الخصوم وأصحاب الحاجات «غير الضرورية»، ومنهم من اضطر للهجرة، ومنهم من أذعن تحت وطأة الواقع، فسادت في المجتمع لفترة معينة «وحدة في الاحتياجات». ومع رسوخ السلم الأهلي وقيام المدينة بلعب دور متزايد فيها، أخذت «مجموعة الحاجات الرئيسية» تشكل عائقاً وضاغطاً أكثر فأكثر على فئات ضاغطة من المجتمع. ومن هنا بدأ الغرب يصبح بالنسبة لأولئك شيئاً مثالياً وأرضاً للأحلام تحترم وتقدر الحاجات. أما عن تلك الحاجات العظيمة التي كان يوفرها النظام السوفييتي، فقد تراجع التفكير فيها.. «فعندما يضغط الحذاء على القدم ينقطع تفكير

الإنسان بالدفء الذي توفره السترة التي يلبسها».

لعل الاختلاف الرئيسي بين الحياة الفلاحية والحياة في المدينة هو أن الحياة الفلاحية أقرب إلى التدين، وهذا يعني أن الاحتياجات الاعتيادية للوسط الفلاحي بسيطة وطبيعية، لكنها في الوقت نفسه غنية بالصور الروحية التي تبدو وكأنها حاجات ضرورية يتم استهلاكها. والحديث لا يدور هنا عن الكنيسة، بل عن الشعور الكوني العام والقدرة على رؤية المعاني السامية في كل مظاهر الطبيعة والعلاقات الإنسانية، فعمليات الفلاحة والبذار والحصاد وبناء البيت وتناول الطعام، ولغز الحياة والموت، كلها لها صفة القداسة عند الفلاح.

الحاجات.. بين الريف والمدينة

إن الحياة في المدينة الكبيرة تحرم الإنسان الأساليب الطبيعية لإشباع حاجاته وبالوقت نفسه تجعله يخضع لضغط عصبي مستمر بسبب تناقض النظام المديني للزمان والمكان مع الانتظام والاتزان الطبيعي لهذا الإنسان. خطأ السوفييت الاستراتيجي بدأ إبان فترة التصنيع في المدن الكبرى، فمن المعروف أن الريف والمدن الصغرى كانت الدعامة الرئيسية للنظام السوفييتي آنذاك، وكان من الواجب تقويتهما وتطويرهما، ويبدو أن هذا لم يتم بسبب قلة الموارد أو بسبب عدم دقة وعي الماركسيين في الاتحاد السوفييتي آنذاك الذين أخذوا بفكرة التقدم، وهكذا بدأت بالتكون حالة من التوتر في حياة معظم مواطني الاتحاد السوفييتي بسبب البيئة التي ولدتها الحياة المدنية، وبما أن هذه الحالة تحولت إلى ضغط هائل يُمارَس على الشخص، صار عليه التعويض عن ذلك الضغط بحاجات حياتية أخرى. ونسوق مثالاً:

أعراض الكافتريا

إن الضغط الناتج عن أزمة النقل يؤدي لإفراز هرمونات عصبية تقود لنشوء شهية من نوع خاص لا علاقة لها بالجوع، وهي هرمونات يقوم الجسم نفسه بإنتاجها، فالإنسان الذي يصل من عمله إلى بيته يشعر برغبة بقضم شيء ما، نقول بقضم وليس الأكل بشكل طبيعي لسد جوعه، فهو يشعر برغبة في قضم شيء شهي «ما يدعى أعراض الكافتريا».

يبدو الأمر لأول وهلة تافهاً، ولكن في الحقيقة تبرز لدينا حاجة لابد للنظام الحياتي أن يكون قادراً على

التنبؤ بها والعمل على إشباعها، لأن اعتبار ذلك مجرد نزوة عابرة يقود إلى حشد عدد غفير من الأشخاص الذين ينتابهم الشعور بالحرمان.

تزخر المدينة بكم كبير من الظواهر المشابهة التي لا يعرف الفلاح عنها شيئاً «خصوصاً فئات المتقدمين في العمر»، ويجب التنويه أنه بالإضافة إلى الحاجات البيولوجية للإنسان التي يتم إشباعها عن طريق الأشياء، يحتاج الإنسان لاستهلاك شيء آخر وهو التصورات، وهي تعتبر حاجة أساسية لا تقل أهمية عن الحاجات الطبيعية، وتزداد المشكلة تعقيداً إذا تذكرنا أن عالم الأشياء وعالم الإشارات يتقاطعان ويتكاملان ويصعب فصلهما، فكثير من الأشياء التي تبدو في ظاهرها مخصصة لأجل غاية معينة تكون قيمة بالنسبة لنا، ليس كشيء، بل كصورة أو إشارات تعكس علاقات إنسانية محددة، ففنجان قديم أو فستان دارج أو دراجة نارية كلها عبارة عن صور لا يمكن أن تقتصر على الوظائف المادية التي تقوم بها، لكنها تتجسد في أشياء مادية. فالفلاح يلبي حاجاته من الصور بشكل تلقائي عن طريق الارتباط بالطبيعة والناس وبفضل نمط العمل الذي يقوم به، بينما تتم تلبية حاجات الإنسان في المدينة بواسطة عدد هائل من الأشياء أو الإشارات التي غالباً ما تكون عديمة الفائدة.

لقد عرفت في حياتي ثلاثة أشكال للحصول على النار. ففي سنوات الحرب العالمية العظمى اعتاد أهل القرى والمدن على استعمال «الزناد» الذي دعي بالكتيوشا آنذاك، وكان الجميع يملك مثل هذه الزنادات تقريباً، ولكن كل قدحة كانت تنتهي بإشعال النار، وكانت حدثاً يولد إحساساً «كونياً» لدى من يشهد ذلك، وفي كثير من الأحيان كان ذلك يتم بحضور عدد من المشاهدين مع ما يرافق ذلك من إلقاء الطرائف والمواعظ أو حتى إلقاء الشعر، بحيث أن هذا الحدث على بساطته كان يحيي عالم الصور لدى أولئك

المشاهدين. وعند استقرار الحياة الطبيعية في البلاد إثر سنوات الحرب دخلت حيز الاستعمال أدوات الثقاب المنمطة التي تحمل منفعة محددة فقط بقدرتها على إشعال النار، ومن ثم ظهرت القداحات الحديثة، وكان قسم منها مخصصاً. مثل أعواد الثقاب. فقط لغرض إشعال النار، لكن فيما بعد ظهرت أنواع كثيرة النوع جداً من القداحات التي يمكن أن ندعوها بقداحات الإشارات. لأن مثل هذا النوع ظهر كأداة ظريفة صممت ضمن نماذج فنية دخلها الخيال بحيث تحولت إلى إشارة للإنسان الذي يحملها في يده ويقلبها ويعبث بها متمعناً في شكلها الخارجي، ومن ضمن ذلك مظهر الشرارة المنطلقة منها.

روحيات مختلفة

في العهد السوفييتي كان الإيديولوجيون أصحاب العقول المتحجرة يصمون بالعار ظاهرة حب الأشياء التي استولت بشكل مفاجئ على إنساننا البسيط، وكانت الدولة تقمع الميل والحب نحو تلك الحاجات، ولكن الدولة نفسها عجزت في نهاية الأمر عن لجم نزوع الإنسان نحو تلك الحاجات، فانفلتت الأمور ولكن بشكل مختلف ومشوه، وللأسف تسير المعارضة لدينا اليوم في ذلك الطريق، فهي تنطلق من أن روسيا تتميز «بالسمو الروحي»، ويؤكدون أن الغرب يفتقر إلى هذه الميزة الروحية. إن هذا المدخل ليس صحيحاً، وهو عمل يقود إلى طريق مسدود. فالسمو الروحي يختلف من حيث الجوهر من مكان إلى آخر، ويتم التعبير عنه بواسطة صور وإشارات مختلفة تماماً، فعلى سبيل المثال نحن نرى أن حب المال شيء مناف لسمو الروح، أما بالنسبة للبروتستانت المتشددين فينظرون إلى المال والحصول عليه كعلامة للنخبة والصفوة، وكانت عملية الحصول على المال بالنسبة لهم وسيلة للتقرب من الإله بعيداً عن أية أطماع، والمسألة تتعلق بوجود روحية من نوع آخر، فعندما ننعت أولئك البروتستانت بالطمع، فهذا يعني أننا لم نفهم حقيقتهم، وبالتالي لا نستطيع مواجهة الغرب في حملته على نمطنا الروحي، وكذلك سنعجز عن توضيح أفكارنا للغرب بأن حملته ضدنا ستؤدي به إلى الدمار الذاتي، فالليبراليون الجدد كثيراً ما يستخدمون صيغة نهاية التاريخ التي يعتبرون أنها تعني القضاء على النظام السوفييتي، ولكن الأهم المعنى الآخر لتلك الصيغة: «إنها تعني الانتصار الكامل للمدينة على القرية أو للغرب على الشرق».

الغرب وإشباع الجوع الروحي

لقد تأججت هذه المسألة بكل أبعادها عند انهيار المجتمع الأوروبي القروسطي التقليدي وظهور مجتمع جديد هو المجتمع البرجوازي، وكانت الضربة الرئيسية التي تلقاها المجتمع التقليدي قد جاءت من حركة الإصلاح البروتستانتي التي نعتها إنجلز بأنها «الكارثة الوطنية التي حلت بالألمان».

فالبروتستانتية التي أعطت أساساً أخلاقياً للرأسمالية هي نفسها التي حطمت الصور المقدسة في ذلك المجتمع، وقد كتب كارل غوستاف يونغ: «الأشكال اللاشعورية كانت دائماً تجد انعكاساً لها في الصور الدفاعية والعلاجية، وهي بذلك خرجت خارج حدود النفس إلى النطاق الكوني. إن الهجوم العارم الذي شنته حركة الإصلاح على تلك الصور خرق الهالة المحيطة بتلك الرموز المقدسة. فتاريخ تطور البروتستانتية هو تاريخ تحطيم الصور القائمة التي تهوي واحدة بعد أخرى، حيث لم يكن هذا شيئاً بالغ الصعوبة بعد أن تم النيل من مصداقية ونفوذ الكنيسة.

لقد كانت الصور الكبيرة والصغيرة العامة والشديدة الخصوصية تهوي واحدة تلو الأخرى، حتى وصلنا إلى مرحلة تفتقد إلى الرموز المسيطرة على حياتنا الآن، فالبروتستانتية وجدت نفسها خارج نطاق الحماية التي كانت تتمثل بالصور، ولذلك أصبحت في وضع يمكن أن يثير هلع أي إنسان يعيش حياة طبيعية. كان الوعي المستميت للبروتستانتية يرفض مجرد السماع عن هذا الموضوع، ولكن في الوقت نفسه كان يبحث عما فقدته أوروبا».

في الحقيقة لم يخسر المجتمع البرجوازي صوره ورموزه فحسب، بل قام بخلق عالم كامل من الصور والرموز الجديدة، وهذا هو السبب في بقائه واستمراره، فقد اكتسب المجتمع البرجوازي قوة وثباتاً جديدين بسبب توصله إلى نظام . إشاراتي شامل . بالنسبة لأعضائه، ألا وهو النظام النقدي. لقد أصبحت النقود إشارة قادرة على أن تحل محل صورة أخرى، وأن تمثل أي نمط من العلاقات، فما من شيء إلا ويمكن شراؤه بالنقود على طريق إشباع الحاجات، فالمجتمع بمجمله أصبح غير روحاني وغير متديّن، ولكنه بالمقابل امتلأ بعدد كبير من الصنميات «الأشياء . التصورات»، ولم تتخذ العلاقات بين البشر علاقة إنسان بإنسان، بل علاقة أشياء بعضها ببعض، وكانت هذه العلاقة متخفية.

التأثير على الوعي الاعتيادي

واستناداً إلى نظرية غرامشي، يعطي الأخصائيون في الثقافة المعاصرة دوراً كبيراً «للبضاعة الشعبية» في تثبيت ودعم البرجوازية في المجتمع الغربي، فالأشياء «الثقافة المادية» هي التي تشكّل البيئة المحيطة بالإنسان العادي، وهي تحمل معاني ذات تأثيرات ضخمة على الوعي الاعتيادي. وإذا ما جرى تصميم الأشياء بشكل يأخذ بالاعتبار دورها الوظيفي كإشارات ومنظومات مشكّلةً من الرموز، فإنها بسبب ضخامتها وتنوعها الشديد يمكن أن تصبح العامل الحاسم في تشكيل الوعي الاعتيادي، السائد. ففي الولايات المتحدة أصبحت طريقة تصميم وإنتاج البضائع الشعبية هي الآلية لغرس القيم الثقافية في وعي المواطنين، «أي إنشاء وضمان وبقاء النواة الثقافية السائدة».

يركز الأخصائيون بشكل خاص على قدرة هذه الآلية على القيام بعمليتي التنميط وتجزئة المجتمع بشكل فعّال، فالسيارة من حيث المبدأ جاءت تلبية لحاجة الإنسان الطبيعية في التنقل من مكان لآخر، لكن الذي حصل في الواقع أنه تم تضخيم تلك الحاجة لتتحول تلك السيارة إلى شيء آخر تماماً، فهي لم تعد شيئاً فحسب، بل رمزاً أيضاً، فالناس أجبروا على شراء السيارة التي أصبحت تلعب دوراً مهماً في هيمنة المجتمع البرجوازي الثقافية، وتلعب أيضاً دوراً في نسف الهيمنة الثقافية في المجتمع السوفييتي، فأعداد كبيرة من المواطنين السوفييت عدّوا أنفسهم محرومين لأنهم لا يملكون سيارة جيدة. وكما يقول ماركس: «الحيوان يريد الشيء الذي هو بحاجة إليه، أما الإنسان فهو يحتاج الشيء الذي يريد».

لم يكن ذلك الانتشار الواسع والشامل للسيارات مبرراً سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية، ففي أوروبا تعادل المصاريف الفعلية لانتقال الشخص لمسافة كيلو متر واحد بسيارته الشخصية ثلاثة أمثال المصاريف الناتجة عن استخدامه الحافلة العامة، ولنتساءل الآن: لماذا تموّل الدولة عملية انتشار السيارات بهذا الشكل السخي على حساب الأشخاص الذين لا يملكون السيارات؟ يكمن الجواب بأن السيارة هي ضمانة للمحافظة على الهيمنة، وبالتالي هي دعامة لاستقرار المجتمع البرجوازي.

استقرار المجتمع البرجوازي.. و«واجهات العرض»

باعتبار أن الحديث عن استقرار المجتمع يدور كل شيء فيه حول الصور، أصبح من الممكن الحديث

عن تحفيز عملية الاستهلاك دون الاضطرار لتوسيع القاعدة المادية بشكل كبير، وذلك عن طريق إنشاء الواقع الافتراضي غير الموجود، حيث احتلت «الواجهة» جزءاً أساسياً من حياة الناس، وما هي إلا منظر للأشياء، ففي الغرب تتسكع الغالبية العظمى من الناس أمام السوبر ماركت ومحلات التسوق الضخمة وأمام واجهات العرض دون أن يكون في نيتهم شراء شيء، ونذكر هنا بأنه قبل أن يتوصل الغرب لاكتشاف «واجهات العرض»، كانت حشود العمال طوال المراحل الأولى للتصنيع التي دامت قرابة 150 سنة قد أنشأت لنفسها واقعاً افتراضياً هو الإدمان على الكحول. أما الخطوة التالية فقد تجسدت في ظهور الدعاية الحديثة، فالصورة كانت تتشكل في الفراغ وفي الأثير، فجوهر الدعاية ليس في المعلومات التي تحملها عن البضائع الملموسة التي يفترض أن يشتريها المستهلك، ولكن المهم هنا إنشاء عدد وافر من الصور، وهو الساندويشات المطلوبة. يخيّل إلينا بأن الدعاية هي انعكاس لوفرة البضائع والفرص، لكنها في الحقيقة وهم، وهي جزء من ذلك الواقع الافتراضي المختلق الذي يعيش فيه الإنسان الغربي. إن دور الدعاية في تعزيز الهيمنة على الناس يعرفه الإيديولوجيون جيداً. فعالم السياسة الأمريكي جورج مايرس يصرح: إن الدعاية إذا أخذنا بعين الاعتبار قوتها الإيحائية التي تمتاز بها، تلعب دوراً كبيراً في الصراع الإيديولوجي بين الرأسمالية والاشتراكية، أما الاختصاصي في الحرب النفسية لاينباروجر فقد كان أكثر تحديداً بقوله: «لقد أقامت الدعاية سوراً نفسياً عظيماً لا يسمح بدخول الدعايات الأجنبية أو المشبوهة إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، كما جعلتها منيعة في حال تعرضها لأي عدوان إيديولوجي من وراء المحيط».

من الواضح أن انغماس حضارة ضخمة في الواقع الافتراضي المشكّل وفق صيغ الأخصائيين والفنيين

في أهم مراكز الأبحاث في مجال الدعاية، يخفي في طياته خطر التشوه الثقافي. فمن الناحية النظرية يمكن القول إن التحكم بثقافة التشيؤ وعالم الصور سيؤدي لامحالة إلى كوارث في الثقافة الغربية. يعلن المؤرخ توينبي بمرارة: أظن أن مصير حضارتنا الغربية يرتبط بما نقدمه لرعايانا من الصور والرموز والإشارات التي يمكن وصفها بأنها سيئة، ولكنها جذابة ومستساغة..

وجبة الإشارات المعقدة

اللغة هي وسيلة للهيمنة، خاصة تلك المنظومة من الإشارات التي تشكل فضاءات الكلمة، إلى جانب ذلك يمكن أن نتحدث عن عالم مميز من الأشكال التخطيطية والتصويرية التي يتم إدراكها عن طريق البصر والتي تدعى «ايدوسفير» المشتقة من كلمة الايدوس اليونانية التي تعني الشكل. الصورة.

بعد أن تحولت حياة المجتمع إلى ما يشبه العرض المسرحي، أظهر القرن العشرون الأثر الهائل للصور البصرية كوسائل سيطرة، والتي لم يكن من الممكن في السابق تخيلها. وكقاعدة عامة تستخدم هذه الصور مع النص والأرقام بهدف خلق تأثير متكامل ومتصاعد على المتلقي، ويرتبط هذا التأثير باتحاد نوعين مختلفين من الإدراك هما: الإدراك الإشاراتي «الدلالي» والإدراك الجمالي، بحيث يعزز ويحفز أحدهما الآخر بشكل متبادل، ويحدثان حالة طنين. إن أكثر وسائل الإعلام فعالية تستخدم التناغم بين المعنى وعلم الجمال، فهي تمثل بآن واحد فكر الإنسان وإحساسه الجمالي «المدلول يقنع وعلم الجمال يفتن»، ولاشكّ أن قوة تأثير المسرح تشتمل على النص والديكور وأصوات وإضاءة مبنية على هذا الأساس. فعبر التأثير على قنوات الإدراك المختلفة تتمكن الرسالة المؤلفة من أشكال إشاراتية مختلفة متنوعة أن تستحوذ لفترة مديدة على انتباه واهتمام الإنسان، فلهذا السبب نلاحظ أن فعالية مثل هذه الرسالة من حيث قدرتها على التغلغل في وعي الإنسان وخصوصاً إلى مجال اللاوعي، تكون أكبر من الرسالة المركبة من نمط واحد من الإشارات البسيطة المتجانسة وأحادية التوجه.

لقد استعملت الصور البصرية بصورة فائقة أثناء فرض الهيمنة النازية في ألمانيا، ويتذكر أ. شبير أحد أنصار هتلر، كيف كان يستخدم الصور البصرية في تصميم مؤتمر الحزب النازي عام 1934، فيقول: «لقد عرضت فكرتي أمام اللجنة المنظمة للمؤتمر حول شكل وإخراج المؤتمر على الوجه التالي: تثبيت الآلاف من أعلام ورايات المنظمات الألمانية المختلفة خلف الأعمدة العالية المصفوفة على محيط المساحة التي يجري فيها العرض العسكري، بحيث يتدفق حملة الأعلام بعد إعطاء إشارة البدء عبر عشرة ممرات، ثم يجري تسليط أضواء مبهرة على الأعلام والنسور المتلألئة على صداري حمّلتها الشيء الذي يضمن الحصول على تأثير معنوي بصري قوي للغاية على كل من يشاهد هذا العرض، ثم أصرّيت على هتلر أن أحصل على 130 من البروجوكتورات الحديثة للمدافع المضادة للطائرات التي تنتجها ألمانيا، وكان ضوؤها يبلغ عدة كيلو مترات، وعندما أجيب طلبي كان التأثير يفوق كل ما كنت أتصوره، خاصة عندما ازدحم المكان بـ130 عموداً ضوئياً ساطعاً يبعد أحدها عن الآخر اثني عشر متراً على الأرض، لكنها تلتقي في السماء على علو 6 كيلو مترات، مشكّلة قبة متلألئة متوهجة، الشيء الذي كان يوحي بوجود قاعة ضخمة بدت فيها تلك الأشعة الضوئية كأعمدة مرصوفة على طول أسوار القاعة الخارجية الشاهقة الارتفاع. وأحياناً إلى جانب هذه الهالة الضوئية كانت تمر السحب معطية لهذا المنظر الخيالي لمسة سريالية». هكذا يتم تقديم وجبة دسمة من الإشارات المعقدة..

لقد كانت سلاسل الرسوم ابتكاراً عبقرياً لنقل الرسائل إلى الأشخاص الذين لم يعتادوا القراءة وقد أصبحت هذه الرسوم جزءاً هاماً من الثقافة الجماهيرية في الولايات الأمريكية كما كانت حتى ظهور التلفزيون أداة جبارة للهيمنة بحيث يمكن القول بأن تاريخ الإيديولوجيا الأمريكية الحديثة بكامله ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ تلك السلاسل ويكتب عن هذه الرسوم عالم الثقافة امبرتو ايكو الذي درس هذه الظاهرة فيقول: « لقد ولدت ثقافة فريدة هي الثقافة الجماهيرية التي تقوم البروليتاريا فيها بإدراك النماذج الثقافية للبرجوازية وهي واثقة تماماً بأن ذلك هو تعبيرها المستقل عن ذاتها».

لتصوير الأهمية التي يمثلها الغذاء الروحي بالنسبة للأمريكيين نسوق الحادثة التالية: أدى إضراب عمال المطابع الأمريكيين إلى انقطاع وصول سلاسل الرسوم إلى أكشاك البيع، وقد بلغ استياء السكان من الشدة مما جعل عمدة نيويورك القيام شخصياً ولعدة أيام بقراءة تلك السلاسل عبر الإذاعة من أجل طمأنة سكان مدينته. كما أقام سكان إحدى مدن ولاية إيلنويز استفتاءاً شعبياً غيروا فيه اسم مدينتهم إلى متربوليس على اسم المدينة الخيالية التي يعمل فيها سوبرمان.

لقد دلت الأبحاث المهمة على أنه في منتصف الستينات كان هناك بين 80 . 100 مليون أمريكي يقومون يومياً بقراءة السلاسل في الجرائد أي أن 58% من الرجال و 57% من النساء لم يكونوا يقرؤون تقريباً من الجرائد سوى تلك السلاسل. فحتى أثناء الحرب العالمية الثانية كان قارئ الجريدة العادي يقوم

بقراءة السلسلة أولاً ثم يقوم بقراءة ملخص أخبار الحرب. كما بينت الدراسات أن الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 30 . 39 سنة أبدوا اهتماماً كبيراً بسلاسل الرسوم. أما فيما يتعلق بالأطفال في سن المدرسة فإن 99% منهم يقرؤون السلاسل بانتظام بحيث تتحول مناقشة سلاسل الرسوم الهزلية إلى موضوع رئيسي في أحاديث الطلاب، الشيء الذي يجعل هذا «النوع من الثقافة» آلية بالغة الأهمية في التنشئة الاجتماعية للأطفال.

لقد أصبحت الشخصيات المبتكرة وحتى النماذج الأولية التي تم إيجادها بشكل اصطناعي كسوبرمان أو بات مان مثلاً جزءاً ضرورياً من العالم الروحي للإنسان الأمريكي.

عندما قام ألكاب مؤلف السلسلة المشهورة «ليل إبنير» بإدخال شخصيته الجديدة المرأة الأقبح في العالم لينا . المرأة الضبعة . طلب من القارئ أن يرسل اقتراحاته في رسم ملامح وجه تلك المرأة فكانت النتيجة أن استلم أكثر من مليون رسالة بهذا الشأن.

في منتصف السبعينات كانت سلسة « ليل إبنير» تنشر في أكثر من ألف جريدة أمريكية يقرؤها 80 مليون أمريكي يومياً وقد قام جون شتينبك بترشيح ألكاب لنيل جائزة نوبل في الآداب. ويمكن إرجاع هذا الاستيلاء الناجح للغاية على جموع الجماهير بواسطة سلاسل الرسوم إلى الجمع وامتزاج النص بالصورة البصرية.

بعد أن تمكنت سلاسل الرسوم من فرض سلطتها الواسعة على القارئ انتقلت لأداء مهام أخرى أكثر تعقيداً بهدف تعميق الهيمنة وتجديدها عبر إنتاج لغة اصطناعية جديدة مفرطة في التبسيط. فقام مؤلفو هذه السلاسل بالتعاون مع أخصائيين بالتحليل النفسي وعلوم اللغة بإعداد ومن ثم إدخال المصطلحات المحدثة من قبلهم في وعي القارئ. وسرعان ما دخلت هذه الكلمات والمصطلحات الجديدة إلى لغة الوعي اليومي ومن ثم تحولت إلى اللغة الرسمية السائدة. مع أننا في روسيا نعتبر أنفسنا أمة قارئة تقليدياً، من الصعوبة بمكان أن نتصور الدور الذي لعبته سلاسل الرسوم في تشكل الوعي الجماهيري للأمة الأمريكية وبغض النظر عن محتوى هذا الوعي فقد خلقت السلاسل إحساساً باستقرار المجتمع حيث كانت هذه السلاسل تقود العائلة الأمريكية العادية من جيل إلى جيل وتزودها بمنظومة إحداثيات ومعايير ثقافية مستقرة. ففي إحدى كتب تاريخ سلاسل الرسوم الصادر عام 1977 وردت معلومات عن السلاسل الهزلية الأكثر شهرة التي استمرت في الصدور ثمانين عاماً دون انقطاع، مثل سلسلة سوبرمان المعروفة ومن أبرز هذه المعلومات هي: « أن الأمريكي يمضي حياته برفقة نفس الأبطال ويستطيع أن يبني خطته الحياتية انطلاقاً من حياة تلك الشخصيات حيث يرتبط هؤلاء الأبطال بذكرياته منذ الطفولة فهم أقدم أصدقاء لديه وباعتبار أن هؤلاء الأصدقاء يصحبونه عبر مسير حياته في الحروب والأزمات

وتبديل أماكن العمل والطلاق وغيرها فإن تلك الشخصيات تصبح أكثر عناصر وجوده استقراراً».

ففي روسيا كانت منظومة الإحداثيات المستقرة تقوم بشكل أساسي على الدين والعادات الشفهية غير المكتوبة والآداب ولم نعرف اختلاق مثل تلك الأدوات بشكل اصطناعي ومهين كما هو سائد في المجتمع الأمريكي ولكن الذي حدث في الستينات ظهور حالة فراغ وخلل في منظومة الإحداثيات، تراجع تأثير الدين بشكل حاد أما العادات الشفهية الآتية من القرية أصبح تأثيرها ضعيفاً على الجيل الثاني من سكان المدينة. أما بالنسبة لدخول الأفكار الرفيعة في التفكير الجماهيري فلم يكن كافياً ولم يسد هذا الفراغ. بحيث أدى هذا الواقع إلى حالة أضحى فيها استهلاك الصور التي تحافظ على استقرار النواة الثقافية أدنى من المستوى المطلوب.

الطريق الذي يسير عليه الغرب سيقود إلى إفراغ الإنسان وفقدان علاقته مع العالم ومع الأخر وإلى اختلال المسيرة الطبيعية لتطوره لأن الغرب كمساحة مليئة بالصنميات خلق إنساناً من نمط خاص، وفي هذا الاتجاه وجد الغرب نفسه في طريق مسدودة فصناعة الثقافة الجماهيرية وجدت نفسها مضطرة لإنتاج صور يكون تأثيرها على الإنسان أكثر قوة وتدميراً ولكن الشيء الذي يجب تسليط الضوء عليه هو أن الغرب تمكن بشكل مؤقت من الاستجابة للحاجات الجديدة للإنسان وقام بإشباعها عبر البدائل المصطنعة والمزيفة وبالنتيجة استولت ثقافة إنتاج الصور الرخيصة على الجمهور وبذلك تمكن النظام البرجوازي من الهيمنة الثقافية التي أكسبته الاستقرار.

لا يتسع المجال هنا لنتناول كل أنواع «أنظمة الإشارات» التي تشترك في عمليتي إقامة الهيمنة أو نسفها وسنكتفي بذكر نوعين منها: فالأول ذي أهمية غنية عن التعريف، وهو مجال الأصوات أي عالم الأشكال الصوتية للثقافة أما الثاني فأهميته غير منظورة بشكل مباشر ألا وهو عالم الروائح.

كانت الأصوات، والسكون أيضاً والتي تؤثر بشكل أساسي على المشاعر وليس على العقل تلعب دوراً هاماً في برمجة السلوك. لقد تشكلت الكلمة مع كل ما تحمله من قوة سحرية خارقة من الأصوات المبهمة التي يطلقها قائد السرب أو القطيع وكل من يعرف الحيوانات يعرف كم هي غنية بالنبرات الصادرة عنها وكم تؤثر فيمن يسمعها مثل مواء القطط أو نباح الكلب أو صهيل الخيل، أما فيما يتعلق بالكلمة فإن إدراكها يتعلق بدرجة كبيرة بنبرات الصوت الذي نطقت به، فمن أدى الخدمة العسكرية يعلم ما هو أثر الصوت القيادي أو الآمر، وهنا لا بد من التذكير بأن أبرز مؤسسي علم اللسانيات هما العالمان المنحدران من روسيا ياكوبسون وكروبسكوي صاحب مؤلف « أسس علم النطقيات» حيث أوضح كروبسكي أن علم النطقيات هو ذلك الفرع من اللغة الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الجزء المعنوي . السيمنطقي . الدلالي . اللغة وبين الجزء الصوتي لها. لقد تحدثنا عن «الإرهاب السيمنطقي» كأسلوب للسيطرة من

حيث اغتيال الكلمات ذات المعاني العميقة المتعددة أو من حيث تبديل معاني الكلمات وصولاً لإنتاج لغة جديدة اصطناعية مبسطة « لغة مضادة».

إضافة لذلك يحتل علم الأصوات اللغوية مكانة هامة في التأثير على العالم المحيط حيث كان العالم هايدكر يؤكد أنه «من أجل اكتشاف الوجود بكل ظواهره الخفية لا بد للسامع أن يسلم نفسه بحرية لسلطان الصورة المسموعة لذلك الوجود» وهناك أبحاث قام بها محللون نفسيون حول الكيفية التي يؤثر بها صوت رجل السياسة على اللا شعور وكيف انعكس ذلك على الجمهور بعد المناظرات الإذاعية بين كندي ونيكسون في انتخابات عام 1960.

ونراقب اليوم الحملة الواسعة الهادفة لتحريف الأسس الصوتية للغة الروسية عبر الإذاعة والتلفزيون. أما عن تأثير الموسيقى على الوعي لنتحدث عنه لأن ذلك بديهي ويكفي أن نتذكر تأثير مارش عسكري أو جنائزي أو تأثير الأغنية الوطنية « قومي أيتها البلاد العظيمة» أو استعراض فرقة روك أمام جمع من المعجبين لنلمس هذه الحقيقة. لقد كتبت ألوف الكتب حول دور الموسيقا في الهيمنة الثقافية مثلها مثل قنوات التأثير الأخرى كالكلمة والحركة والصورة البصرية.

لنعد الآن إلى ظاهرة أقل وضوحاً من عالم الصوتيات وهي الروائح حيث يمكن أن نعتبر عدم إعطاء التقدير اللازم للروائح «العطور» بصفتها فرع بالغ الخصوصية من الثقافة أمراً غريباً للغاية. حيث يكفي أن نتذكر الدور الذي تلعبه العطور كإشارات في أكثر العلاقات الإنسانية حساسية. إن الرائحة كمنظومة إشارات تتميز بتأثير قوي على السلوك فحتى سماع الكلمة التي تصف الرائحة تؤثر على مخيلة الإنسان الذي يبدأ بالإحساس بتلك الرائحة. ولهذا السبب يتم استخدام كلمة الرائحة في الاستعارات الأدبية على نطاق واسع ولغة السياسة كذلك تحوي العديد من تلك الاستعارات كتعبير «عابق بالدم» هو من أبقى الاستعارات المستعملة من قبل السياسيين الذين عندما يقحمون هذا التعبير في الوعي الجماهيري كثيراً ما يقيمون مسرحية دموية صغيرة يذهب ضحيتها عدد من الأرواح وذلك بهدف إحداث صدمة نفسية لدى السكان.

لقد طبق الغرب عملياً نظرية الروائح على نطاق واسع بهدف تقوية النواة الثقافية للمجتمع وقدم للناس الذين ينتمون لمختلف الفئات الاجتماعية والثقافة الفرعية وجبة غنية من الروائح وقد قامت قطاعات صناعية ضخمة بتطوير صناعة العطور والمكياجات والتبغ والمشروبات وغير ذلك من الصناعات التي كان للرائحة فيها الدور المفتاحي في انجذاب الإنسان لها فكان المصممون هم الذين يخططون كيف يجب أن تكون الروائح في الفنادق والمطارات والمطاعم وحتى أحياء كاملة فالشخص الذي كان يحل بالغرب قادماً من الاتحاد السوفييتي كان أول ما يجذب اهتمامه هو التضاد القائم في عالم الروائح.

الخيار السوفييتي وبدء الانهيار

كيف رد المشروع السوفييتي على احتياجات المجتمع المدني الجديد؟

نعتقد أن الطريقة التي اتبعها المشروع السوفييتي بهذا الصدد لم تكن موفقة حيث كانت تجري المجاهرة بأنه ليست هناك حاجة إلى الصور وفي حالات أخرى كان يجري تصوير الاحتياج إلى الصور بالفساد والفجور. فلا يمكن إلا أن نستغرب تلك اللا مبالاة أو حتى النفور الشديد، الذي قوبلت به أبسط احتياجات النساء السوفييتيات إلى المكياج وغيره من الأشياء ذات الأهمية البالغة لتأمين راحتهن النفسية عبر الإشارات. ولقد انعكس هذا النفور بوضوح في فترة الخمسينات عندما أجريت عدة حملات بهدف استئصال الأشخاص المتأنقين على الزي الحديث. لقد ظهر هؤلاء الأشخاص ضمن الطبقات الاجتماعية الميسورة فظهر الاعتقاد بأن الظاهرة هي وليدة تلك الفئة الاجتماعية المميزة وصاحبة المراتب. لم يتمكن النظام من إدراك حقيقة الموضوع من حيث بدء بروز ظاهرة اجتماعية جماهيرية مقبلة. والنظام السوفييتي الذي يستطيع تأمين الاحتياجات الحياتية لأجيال الشباب التي ترعرعت في ظروف المدينة الكبيرة كان عبر مضاعفته تلك الحشود من المحرومين يقود نفسه إلى نهايته المحتومة ويحفر قبره بيده، رغم كل ذلك جرى في النظام السوفييتي بعض المنافذ المخففة للضغوطات كالرياضة مثلاً وإن كانت غير كافية. بعض هذه المنافذ تم الوصول إليه اعتماداً على الحدس كالمسلسلات التلفزيونية التي بوشر بإنتاجها. النجاح الضخم الذي حصده مسلسل «17 لحظة من الربيع» كان من الواجب أن ينبه ويحذر القائمين على النظام السوفييتي لأن نجاح المسلسل أظهر بجلاء أن الحشود بحاجة لتناول صور سهلة الإدراك تساعد على ترسيخ الاستقرار.

خلال فترة الإصلاحات في روسيا تم إجراء تجربة ضخمة هي «إحلال الإشارة مكان الشيء أو إبدال الأشياء بالإشارات» حيث أجريت هذه التجربة على أشياء ذات أهمية حياتية كبرى «كالمواد الغذائية على سبيل المثال». فأكثر من نصف السكان طالبوا باستبدال الأشياء «المواد الغذائية على مائدة كل منهم» بصورتها «المواد المعروضة على واجهة المحلات». ففي استطلاع للرأي جرى عام 1989 تبين أن 74% من المثقفين اعتبروا أن نجاح البيروسترويكا مرتبط برؤية المواد الغذائية المكدسة في واجهة المتاجر والدكاكين. إن هذا الجواب يعكس الحاجة إلى الصورة أو إلى الفاترينا. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الذين أجابوا بتلك الطريقة هم أشخاص جيدو التغذية بشكل عام ولكن أظهروا أن المهم بالنسبة لهم ليس فقط مادة الاستهلاك بل صورة تلك المادة التي لا يستطيعون اقتنائها في أكثر الأحيان حيث لا تخفى على أحد الحقيقة التالية وهي أن وفرة المواد الغذائية في الواجهات العامة لا تعني إطلاقاً توفرها على مائدة الغذاء في المنزل، واليوم حيث يعاني الكثيرون من أولئك من سوء التغذية فهم يكابرون ويرفضون

الرجوع إلى الماضي الفقير بالصور.

إن مقدمات ضيق المشروع السوفييتي موجودة أيضاً في نمط التفكير الفلاحي للحزب البلشفي وكذلك في فترة العقود الأربعة الأولى من الحكم السوفييتي البالغة الصعوبة عندما غذي الإنسان بالصور الروحانية هي أقرب من الدينية مثل الوطن والواجب.

عندما التحقت بالجامعة كان لا يزال بعض الأساتذة يرتدون قمصاناً عسكرية أعيدت خياطتها، وسراويلاً من الساتان، فلم يكن لديهم إي حاجة للجينز ولكنها نشأت بعد نحو خمس سنوات، لقد تم اختيار حل سيء للخروج من هذا الوضع، فلم يجر تحديد المشكلة نفسها ولا دراستهم لحالتها الحرجة المتأزمة. بعد ذلك تكلموا عن مشكلة أوقات الفراغ، ولكن ذلك لم يكن صلب المشكلة بالإضافة إلى أن الموضوع لم يتعدى مرحلة النقاش فقط، إنما المقدمات تبقى مقدمات، أما بالنسبة لي فإني أرى أن السبب الرئيسي يكمن في تأثير المادية التي أفرغت منها كل أفكار ماركس العظيمة عن الصنمية البضاعية، وبقيت فقط الاستنتاجات المبالغ بها عن الاستغلال. ويجب الاعتراف أن ماركس لم ينه معالجة هذا الموضوع، مع أنه كان يرى المشكلة وحذر منها. إن مصيبتنا لم تكن في الطرق السيئة التي اتبعت في حل المشكلة، بل كانت في عدم إدراك جوهر المشكلة، خاصة عندما جرى النظر إلى الناس الذين يعانون على أنهم متصنعون ويستحقون الازدراء، فهكذا ظهرت المعايير الأخلاقية الازدواجية «مع أن المسؤولين كانوا يستخدمون الرموز»، وظهر الغضب أيضاً، لقد وصل الموضوع إلى اتهام كل من حاول استهلاك ولو شيء من الغذاء الروحي الذي يختلف عن الوجبة الرسمية بالمنشق عن المجتمع. والمشكلة الأهم أن المعايير المستحسنة رسمياً «من الأفلام والآداب والرقصات»، هي تركيبة حسنة فعلاً، ولكنها في الوقت نفسه لم تعد قادرة على تغطية كل الحاجات الحقيقية والمتنوعة للإنسان. ففي هذا العصر أصبحت تلك التركيبة والمعايير الرسمية كريهة بالنسبة للكثيرين، وهنا لوحظ احتدام الصراع الذي توطن داخل الوعي الجماهيري وجرى تضخيمه إلى أقصى حد بحيث وصل خلال فترة البيروسترويكا إلى عنصر هدم أساسي في تحطيم هيمنة النظام السوفييتي.

نذكر كيف كانت ردة فعل الغرب مغايرة تماماً عند اصطدامه بصراع مماثل تجلى في حينه بظهور تيارات معادية للثقافة الرأسمالية السائدة في أواخر الستينات، كالهيبيين مثلاً .

لقد جند الغرب طاقات ذهنية كبيرة لمعالجة الموضوع، واستطاع شيئاً فشيئاً دمج تلك الثقافة المضادة وجعلها تتكامل مع النواة الثقافية للمجتمع الرأسمالي، وكانت النتيجة أنه ليس فقط لم تتزعزع هيمنة الدولة البرجوازية، بل أصبحت أكثر قوة من السابق.

من بين البرامج المدروسة بعناية، وأكثرها تعبيراً، هي سلسلة أفلام رامبو وجيمس بوند، حيث يقوم البطل في كلتا الحالتين. وهو ممن تبدو عليه صفات المنشقين. بالدفاع عن القيم الأساسية لنمط الحياة الأمريكية.

كذلك في سلسلة أفلام رامبو، قام المؤلفون بوضع الثقافة المضادة في خدمة السياسة المحافظة، رامبو الشخص غير الإمتثالي ذي خصائل شعر طويلة جداً يواجه الدولة البيروقراطية، أي أنه جرى توظيف كل الصفات الجذابة لتيارات المنشقين في خدمة إيديولوجية يمينية متطرفة، ويكون الغرب بذلك حقق التأثير المطلوب، ولهذا السبب أيضاً قام بإنتاج آلاف الأفلام المماثلة التي أغرق بها العالم، والآن يغرق بها روسيا.

ومن الوجهة العامة، المسألة ليست سهلة ولا يجوز الانحدار إلى مستوى إنتاج صور ومعايير تحول الإنسان إلى أبله معتوه، وكذلك ليس المطلوب السماح باستعمال الجنس والعنف والمسرح السياسي الرخيص كما يفعل الغرب.

لنتذكر كيف حذر كاتبنا العظيم ديستويفسكي من مغبة ذلك، ولكن بالمقابل لا يجوز التوفير على حساب إمداد الناس بالإشارات، ومن الواضح أنه ما من دولة تستطيع أن تؤمن احتياجات الناس فيها إلى الصور والمعايير الإيجابية بمفردها، لذلك لا بد من استيراد الصور والمعايير الإيجابية بطريقة لا تؤثر سلبياً على حضارتنا. فالاحتياطي العالمي لهذه الصور الحضارية ضخم للغاية.

إذا نجونا حالياً، فمهمتنا المستقبلية ستصبح أسهل بكثير لأن النظام السوفييتي القديم. الاشتراكية التعبوية. قد تهدمت، وطالما تم اقتلاعنا منها بطريقة فظة ومؤلمة، فهذا يعني أننا لن نقوم بهدم النظام السوفييتي، بل على العكس تماماً سنقوم بإعادة تكوينه على صورة جديدة ندرك فيها أن الناس لا يحتاجون إلى البروتين فقط، بل يحتاجون إلى الفيتامينات أيضاً.

Kassioun.org

قاسيون ناطقة باسم حزب الإرادة الشعبية بقرار المؤتمر الاستثنائي في 2011/12/03

دمشق. ص.ب 335033 – تلفاكس 00963113120598

General@Kassioun.com